

الشخصية العربية... تحليل سيكوبولتك للفكر والسلوك

<http://arabpsynet.com/Documents/DocQassimArPsyPoAnalysis.pdf>

أ.د. قاسم حسين صالح

مؤسس ورئيس الجمعية النفسية العراقية
qassimsalihi@yahoo.com



القسم الأول

نرى ، نحن السيكولوجيين ، أن شخصية الإنسان (تفكيره وسلوكه) يسهم في تكوينها ثلاث "مؤسسات " هي : الأسرة والمدرسة والسلطة . وفيما يلي توصيف موجز لدور هذه المصادر في تشكيل شخصية المواطن العربي، لتكشف لنا عن أحد أهم أسباب الصراع السياسي والتخلف الثقافي الذي تعيشه المجتمعات العربية.. ونحن عنه غافلون.

أولاً: الأسرة

يولد الطفل العربي في حضان وبيت يشكّلان لديه توجهها نحو التفكير الخرافي وشخصية فيها اختلافات سلوكية . إذ يخلص من يستعرض الدراسات النفسية والاجتماعية الى نتائج " مخيفة " في مقدمها أن الأسرة العربية متهمه في أن أساليب تنشئتها للطفل العربي تقوم على : العقاب الجسدي والترهيب والتهديد والقمع السلطوي ، وأنها تركّز على مبدأ الحماية والطاعة والخوف من الأخطار ، على وفق رأي الباحث بركات. فيما يرى الباحث مصطفى حجازي أن الطفل العربي يعيش في عالم من العنف المفروض في داخل الأسرة ، الذي يجسّد اعتبارية السلطة الأبوية. ويدعم رأيها باحثان بقولهما: إن الأسرة العربية تعاني من السلطة الأبوية الصارمة ، تتمثل في قهر الأبناء ووأد حرية الرأي .

وترى باحثان من قطر عربي آخر أن الهدف الرئيس للتنشئة الاجتماعية في المجتمعات العربية يتمثل في : خلق الذات التواصلية التي يؤدي تحقيقها الى تعزيز علاقات السلطة الأبوية .

ويخلص الباحث (وظفة) الى أن الآباء في إطار الأسر العربية المتسلطة يستخدمون القمع النفسي بالازدراء والاحتقار والسخرية والتهكم وتوجيه الألفاظ النابية ، وكذلك القمع الجسدي بالضرب والحرمان والسجن والمنع . وفي المعنى نفسه توصل الباحث (شراي) الى أن التنشئة العربية تتمي أساليب التخجيل والتهكم والتخيس وخلق الإحساس بالدونية والنقص . فيما يرى الباحث (علي زيعور) أن الأم العربية تلجأ الى التخويف بالأب والحيوانات والجن والعفاريت كي ينم الطفل أو يطيع أو يهدأ . ومن ثم ينتقل التخويف الى التهديد بالضرب... وأن العصا والحيوان والشيطان أدوات قمع للطفل ومثيرات للربح تؤدي في النهاية الى قتل روح النقد والإبداع واغتيال روح الحرية في نفوس الناشئة .

وفي بحث عن تأثير وسائل تربية الطفل في العائلة البرجوازية الحضرية ، يرى الباحث (شراي)

أن شخصية الإنسان (تفكيره وسلوكه) يسهم في تكوينها ثلاث "مؤسسات " هي : الأسرة والمدرسة والسلطة

يولد الطفل العربي في حضان وبيت يشكّلان لديه توجهها نحو التفكير الخرافي وشخصية فيها اختلافات سلوكية

أن الأسرة العربية متهمه في أن أساليب تنشئتها للطفل العربي تقوم على : العقاب الجسدي والترهيب والتهديد والقمع السلطوي ، وأنها تركّز على مبدأ الحماية والطاعة والخوف من الأخطار (بركات)

أن الطفل العربي يعيش في عالم من العنف المفروض في داخل الأسرة ، الذي يجسّد اعتبارية السلطة الأبوية (مصطفى حجازي)

أن الهدف الرئيس للتنشئة الاجتماعية في المجتمعات العربية يتمثل في : خلق الذات التواصلية التي يؤدي تحقيقها الى تعزيز علاقات السلطة الأبوية

أن الآباء في إطار الأسر العربية المتسلطة يستخدمون

القمع النفسي بالأزدراء
والاحتقار والسخرية والتهم
وتوجيه الألفاظ النابية ،
وكذلك القمع الجسدي
بالضرب والحرمان والسجن
والمنع (وظقة)

أن التنشئة العربية تنمي
أساليب التخجيل والتهم
والتخيس وخلق الإحساس
بالدونية والنقص (شرايبي).

أن الأم العربية تلبأ الى
التخويف بالأب والحيوانات
والجن والعفاريت كي ينام
الطفل أو يطيع أو يهدأ . ومن
ثم ينتقل التخويف الى التهديد
بالضرب . (علي زيعور)..

أن العصا والحيوان والشيطان
أدوات قمع للطفل ومثيرات
للرعب تؤدي في النهاية الى
قتل روح النقد والإبداع
واختيال روح الحرية في نفوس
الناشئة .

ان هذا الإفراط في الحماية
وهذه السلطوية في العقاب
يؤديان الى شعور الأبناء
بالعجز والاتكالية والتهرب من
المسؤولية (شرايبي)

أن نظام العائلة عندنا - على ما
فيه من حسنات كاحترام
الكبار وحماية أفراد العائلة
بعضهم بعضا في الملمات -
يقوم على التناوب والظلم
أكثر مما يقوم على التعاون
والوئام

أن الأب يضطهد الصبي فيما تسحق الأم شخصيته عن طريق الإفراط في حمايته . أما البنت فتدفعها العائلة منذ طفولتها المبكرة الى الشعور بأنها عبء وغير مرغوب فيها . وان هذا الإفراط في الحماية وهذه السلطوية في العقاب يؤديان الى شعور الأبناء بالعجز والاتكالية والتهرب من المسؤولية . وأن نظام العائلة عندنا - على ما فيه من حسنات كاحترام الكبار وحماية أفراد العائلة بعضهم بعضا في الملمات - يقوم على التناوب والخلاف أكثر مما يقوم على التعاون والوئام ، وأن الغيرة والحسد يسودان علاقات أفراد العائلة أكثر مما تسودها المحبة والتسامح ، وأن أولادنا يتعلمون منذ الصغر كيف يجري اغتيال الأصدقاء والأقرباء ، ومن أين تؤكل الكتف ، وأنهم في تنافسهم على محبة الأم وعطفها يتعلمون بشكل تلقائي كراهية الأشقاء وعدهم منافسين يجب التحسب لهم .

وأفادت دراسة (الدمرداش) التي أجراها في مصر بأن الأمهات المصريات يعتمدن الأسلوب التقليدي القديم في تربية الأطفال المتمثل بأسلوب الشدة . وأن الأم المصرية تنظر الى حرية الطفل في التعبير والمناقشة بوصفها جراً شديدة لا يسمح بها . وأفادت دراسة أجرتها جامعة الإسكندرية بأن أحد الأركان الأساسية للتنشئة الاجتماعية يتمحور في مبدأ تطبيع الطفل العربي مع الأوضاع والخضوع للكبار ، سواء أكان ذلك عن طريق التسلط أم طريق الرعاية الزائدة .

وهناك من يذهب ابعدهم فيعزرو ليس فقط اخفاقات الفرد العربي في أمور شخصية من قبيل الاعتقاد بالخرافة والتفكير السلفي ، بل حتى النكسات الكبيرة التي أصابت الأمة العربية، وتحديدًا نسخة الخامس من حزيران عام 67 ، يعزوها الى أساليب تنشئة ورعاية الأسرة العربية لأطفالها ، على ما يرى الباحث (شرايبي).

ويخلص الباحثون محمد عماد إسماعيل ورشدي فام منصور ونجيب اسكندر في مصر ، وقاسم عزاق وحسنا الحمزاوي في تونس الى أن أساليب التنشئة الأسرية العربية تسعى الى أن تخلق الطاعة والأدب عند الطفل عن طريق العقاب البدني ، ثم خلق المخاوف لديه عن طريق كائنات خرافية . فيما توصل كاتب هذا الموضوع في دراسته لأساليب تنشئة الأمهات في بغداد وقرية عراقية قريبة من مدينة الفلوجة الى شيوع معتقدات خاطئة وخرافية عندهن ، من بينها مثلا :

• ذبح خروف أو عجل فجران دم يؤدي الى طرد الشر .

• وضع السكين التي يقطع بها الحبل السري تحت فراش الطفل لمدة أربعين يوما ، تحمي الطفل وأمه من الشر والحسد

• تعليق خضرة أو شذرة ، أو قطعة من الذهب على شكل هلال بشعر رأس الطفل ، تقيه من عين الحسد وتساقط الشعر .

• رمي الحبل السري في حوش الحلال يجعل الطفل مستقبلا ميسور الحال ، ورميه في ساحة المدرسة يجعله يتولى بالدراسة .

تعليق

إن الأسرة العربية بوصفها الحاضنة الأولى للعقل العربي ، تعيش اختلالات واستلابات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية ونفسية ، تضطرها للجوء الى العرافين والسحرة والدجالين والمسيئين لاستخدام الدين ، للتخفيف من حالتها المأزقية .

ومع أن الأم العربية تغذي أطفالها حليباً طيباً من صدرها ..مدفناً بحنانها ، إلا أنها تغذي عقولهم بأفكار خرافية يصعب عليهم التخلص منها حتى لو صاروا راشدين. والمشكلة أن من يتولى السلطة منهم، أو يوصله إليها، يعمد إلى توظيف تلك الخرافات والمعتقدات المتخلفة بما يخدمه سياسياً ويستغلهم مادياً وهم عنه راضون!.

القسم الثاني

ثانياً: المدرسة

تشير الدراسات إلى أن النظم المدرسية العربية تسعى إلى الضبط الاجتماعي، بدلاً من تكريس الحرية المترتبة على المعرفة ، وإلى توليد المسابرة والانصياع لمعايير الجماعة للمحافظة على ما هو قائم . وأن الأنظمة التربوية العربية الرسمية تقوم على تكريس علاقات السلطة الخاصة بالنظام الأبوي ، وتعمل على إعادة إنتاج هذه العلاقات . وأن ما يتعرض له الأطفال من قهر وتسلط تربوي يضعهم في دائرة الاستلاب شاملة تركز مظاهر القصور والسلبية كافة في الشخصية الإنسانية ، على ما يرى الباحثان (وطفة والنقيب) . فيما يذهب باحثان آخران (علي والراهب) إلى أبعد من ذلك فيصفان نظام التعليم العربي بأنه تقليدي يقوم على سجن عقل التلميذ في حذاء صيني ضيق يمنعه من الانطلاق والانتشار والشمول . وبمعنى مقارب يرى الباحث (الناقة) أن شيوع التلقين لا يقتصر على ساحة التعليم المدرسي بل يتعداها إلى مؤسسات التعليم العالي ، وأن الجامعات العربية ظلت أسيرة لطرائق التدريس التي ألفها الطالب سابقاً ، وليس من الميسور تغييرها بما يتناسب مع الدراسة الجامعية القائمة على البحث والمراجع وما يتطلبه من مهارات.

تعليق

تعدّ المدرسة من أهم وأخطر مصادر بناء شخصية الإنسان ، لكونها تغذي العقل بالعلم والمعرفة ، وتهذب السلوك ، ويقضي الفرد فيها خمسة عشر عاماً أو أكثر من أهم مراحل حياته (الطفولة والمراهقة والشباب)، فضلاً عن أنها أداة الدولة والمجتمع في التطور والحضارة ، والقناة التي يتم من خلالها تشكيل أو تكوين العقل العربي .

ولم تعد المهمة الأساسية للتربية تعليم المعارف والمعلومات والحقائق ، فهذه يمكن أن يجدها الإنسان في المكتبات وفي وسائل الاتصال وأخرها الإنترنت، إنما المهمة الرئيسية لها هي تمكين الفرد من تغيير حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والبيئية نحو الأفضل .

وبما أن الفكر ، بوصفه أداة ومحتوى ، ما يزال مرهوناً بتقدم العلم " الذي يفرض استخدامه إلى أن يجعل الحياة بصيغة أفضل " فإن المدرسة ، بوصفها قناة العلم ، لا يكون بمستطاعها تحقيق ذلك ما لم يكن ثالوثها" المعلم - الطالب - المنهج " بمستوى هذه المهمة المعقدة والخطيرة. وتؤكد مكاتب اليونسكو في البلدان العربية أن الغالبية المطلقة من جامعاتها متخلف بما لا يقل عن ربع قرن موازنة بالجامعات الأوروبية، وأنه باستثناء ثلاث جامعات (في السعودية والإمارات) فإن الجامعات العربية

أن الأم المصرية تنظر إلى حرية الطفل في التعبير والمناقشة بوصفها جراً شديداً لا يسمن بها (الدمرداش).

أن أساليب التنشئة الأسرية العربية تسعى إلى أن تخلق الطاعة والأدب عند الطفل عن طريق العقاب البدني ، ثم خلق المخاوف لديه عن طريق كائنات خرافية

مع أن الأم العربية تغذي أطفالها حليباً طيباً من صدرها ..مدفناً بحنانها ، إلا أنها تغذي عقولهم بأفكار خرافية يصعب عليهم التخلص منها حتى لو صاروا راشدين

أن النظم المدرسية العربية تسعى إلى الضبط الاجتماعي، بدلاً من تكريس الحرية المترتبة على المعرفة ، وإلى توليد المسابرة والانصياع لمعايير الجماعة للمحافظة على ما هو قائم

أن شيوع التلقين لا يقتصر على ساحة التعليم المدرسي بل يتعداها إلى مؤسسات التعليم العالي

المهمة الرئيسية (للتربية) لها هي تمكين الفرد من تغيير حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والبيئية نحو الأفضل

أن الغالبية المطلقة من

احتلت المراتب المتأخرة في سلم التقييم العالمي للجامعات.

وفي العراق يتفق الباحثون على ان التعليم الجامعي يعاني من مشكلات كبيرة اذ يشير الدكتور رياض المهيدى إلى (أن هناك 60% من الكوادر من حملة الماجستير ليس لديهم خبرة في مجال التعليم العالي بسبب عدم توفر فرصة مناسبة لتدريبهم بشكل جيد، وهذا من شأنه أن يعمق من الهوة في عملية التواصل بينهم وبين الطلبة ويؤدي إلى خريج غير كفوء). فيما اشار الدكتور محمد فاضل الربيعي إلى أن التركيبة والهيكلية داخل الجامعات غير مساعدة على تأهيلها، وأن النظام الإداري الجامعي غارق بالروتين، و(علينا ترك مرحلة التلقين، والتوجه إلى مرحلة التعلم من قبل الطالب، واعطاء دور للطلاب في التعلم...فضلا عن ضعف المنظومة الاخلاقية، وأهمية دراسة الاخلاق في الجامعات بعيدا عن ذهنية التحريم).

ومن خبرتنا الجامعية لأربعين سنة ،وعملنا خبيراً في وزارة التعليم العالي،فان واقع الجامعات العراقية الآن قد تخلف كثيرا مقارنة بواقعها في سبعينيات القرن الماضي،لأمور تتعلق بعدم الاستقرار الأمني،وهجرة مئات العقول الأكاديمية المميزة ،واغتيال عشرات أخرى،وسوء الادارة ،واعتماد المحاصصة،لا الكفاءة والمرتبة العلمية، في تولي المسؤوليات على صعيد رؤساء الجامعات وعمادات الكليات ورئاسات الأقسام العلمية ايضا.

ونخلص الى أن مؤسساتنا التربوية العربية ما تزال غير مؤهلة تماما لإنجاز هذه المهمة بالسرعة والكافية التي تمتاز بهما المؤسسات التربوية في العالم المتقدم، وأن الطائفة التربوية والتعليمية في العراق ستخرج أجيالا يعقول دوغماتية تزيد من تأخر العراق سنوات أخرى بعمر تلك الأجيال.

ثالثا: السلطة

تتعدد إشكاليات العلاقة بين السلطة والفرد في المجتمع العربي في حالة من التشابك المعقد . سنلتقط إشكاليتين فقط هما : الاغتراب عن السلطة ، وتعدد الرؤى وضبابية المستقبل ، ونوجز الحديث عنهما بلغة البرقيات.

ففيما يخص الاغتراب عن السلطة ، تشير الدراسات الى أن المجتمع العربي واقع مغرب يحيل الشعب ، وبخاصة طبقاته وفئاته المحرومة والمرأة ، الى كائنات عاجزة لا تقوى على مواجهة تحديات العصر . وأن السلطة حاصرت الإنسان العربي فاضطرته للاشتغال بتدبير شؤونه الخاصة وتحسين أوضاعه المعيشية ، وأنها عمدت الى تهميشه وإفقاره وسحق قدراته الابداعية ، على ما يرى الباحث (بركات) .

ويرى الباحثون : وطفة ، النقيب ، شرابي ، رضا ، وغيرهم أن الأوضاع العربية أحالت الإنسان العربي الى كائن مغرب عن نفسه ومجتمعه ومؤسساته ، واضطرته لأن يساوم ويتكيف مع واقعه الأليم بدلا من تغييره . وأن السلطة العربية حولت الفرد العربي الى كائن يعمل في خدمتها دون أن تعمل لصالحه وتحسين أوضاعه المادية والإنسانية واغناء حياته ، وأنها جعلته عاجزا وفقيرا ومهمشا لا يقوى على الإسهام في خدمة مجتمعه.

وما يهنا هنا هو التنبيه الى الآثار النفسية الناجمة عن الاغتراب ، ومن أخطرها : شعور الفرد المغرب بالعجز (powerlessness) ، وإحساسه بأنه لا يمتلك السيطرة على مصيره ، الأمر الذي

جامعاتها (البلدان العربية متخلف بما لا يقل عن ربع قرن موازنة بالجامعات الأوروبية

أنه باستثناء ثلاث جامعات (في السعودية والأمارات) فان الجامعات العربية احتلت المراتب المتأخرة في سلم التقييم العالمي للجامعات

أن الطائفة التربوية والتعليمية في العراق ستخرج أجيالا يعقول دوغماتية تزيد من تأخر العراق سنوات أخرى بعمر تلك الأجيال

أن المجتمع العربي واقع مغرب يحيل الشعب ، وبخاصة طبقاته وفئاته المحرومة والمرأة ، الى كائنات عاجزة لا تقوى على مواجهة تحديات العصر

أن السلطة حاصرت الإنسان العربي فاضطرته للاشتغال بتدبير شؤونه الخاصة وتحسين أوضاعه المعيشية ، وأنها عمدت الى تهميشه وإفقاره وسحق قدراته الابداعية ، على ما يرى الباحث (بركات)

خيرهم أن الأوضاع العربية أحالت الإنسان العربي الى كائن مغرب عن نفسه ومجتمعه ومؤسساته ، واضطرته لأن يساوم ويتكيف مع واقعه الأليم بدلا من تغييره

أن السلطة العربية حولت الفرد العربي الى كائن يعمل في خدمتها دون أن تعمل

لصالحه وتحسين أوضاعه المادية والإنسانية وانحاء حياته

هناك تيار سلفي قوي يدعو
الى استعادة الذات العربية
من ماضيها المجيد وتوكيد
نفسها في مواجهة التحدي
الحضاري، مقابل رؤية تدعو
الى الحداثة و " العصرنة " .

الرجوع الى الماضي نكوص في
عالم اليوم، والحداثة أو "
العصرنة " تعني العولمة وضياح
الهوية

أن الفرد العربي صار في
معظم المجتمعات العربية موزعا"
بين القديم والحديث من دون
أن يكون أيا" منهما حقا"، وأن
النزوع الى كل من السلفية
وتقليد الغرب يشكل نوعا" من
الاعتراض عن الذات (بركات)

محنة نفسية أخرى يعيشها
الفرد العربي هي انه يملك
تاريخا" مجيدا"، ويحمل في
الوقت نفسه صورة سلبية عن
ذاته، وبين هاتين الصورتين (
الحالين) يعيش حالة مأزقية

أن أجهزة الإعلام العربي
أوصلت الفرد العربي الى حالة
من (التقيؤ الفكري) لكثرة
تردادها لما يزيد عن خمسين
سنة مقولة " إن الأمة العربية
تمر الآن بأزمة خطيرة " ، برغم
تعاقب الأزمنة وتنوع السلطات

يدفعه الى أن يكون قديرا وميالا الى التفكير الخرافي ،فضلا عن فقدانه المعنى أو الهدف من الحياة ،
والبعد عن القيم الأساسية في المجتمع ، وشعوره بالعزلة والوحدة الذي قد يصل الى الإحساس بالنبذ .

وفيما يتعلق باستشراف العربي لمستقبله فان الدراسات تشير الى تعدد رؤى السلطات الفلسفية
والسياسية والفكرية والاقتصادية بشكل وضعت الفرد العربي في منطقة رمادية وحاصرته فيها .

ففي المجال الفلسفي ، مثلا" ، هناك تيار سلفي قوي يدعو الى استعادة الذات العربية من
ماضيها المجيد وتوكيد نفسها في مواجهة التحدي الحضاري، مقابل رؤية تدعو الى الحداثة و "
العصرنة " . وكل يأتي بحجج سائدة لموقفه وداحضة لموقف الآخر ، حتى لتبدو الحجج السائدة
والداحضة معقولة ومقبولة، برغم ما بينها من تناقضات. فالرجوع الى الماضي نكوص في عالم
اليوم، والحداثة أو " العصرنة " تعني العولمة وضياح الهوية . ومن يدعو الى المعقولية والتوازن
بينهما، كما فعل محمد عابد الجابري، تبدو له الرؤية منطقية على صعيد ما ينبغي أن يكون، وخيالية
أو مستحيلة على صعيد ما هو كائن .

وقد ينتهي الأمر الى ما توصل إليه بركات من أن الفرد العربي صار في معظم المجتمعات
العربية موزعا" بين القديم والحديث من دون أن يكون أيا" منهما حقا"، وأن النزوع الى كل من السلفية
وتقليد الغرب يشكل نوعا" من الاعتراض عن الذات

ومحنة نفسية أخرى يعيشها الفرد العربي هي انه يملك تاريخا" مجيدا"، ويحمل في الوقت نفسه
صورة سلبية عن ذاته، وبين هاتين الصورتين (الحالين) يعيش حالة مأزقية. فتاريخه يحدثه بالأمجاد
والزهو، فيما حاضره يصفعه بالانكسارات وبما يحاول أن يذله .

وما يزيد من هذه المحنة، أن بعض السلطات في المجتمع العربي تعمق إحساس الفرد العربي
بمشاعر الإحباط وتمارس آلية (الإسقاط)، بأن تنتصل عن مسؤوليتها وترميها على قوى خارجية .

إن تعدد الرؤى حالة إيجابية ومطلوبة في تغيير الحاضر الى ما هو أفضل. غير إن الإشكالية هي
انك اذا أحصيت الرؤى في مجتمعاتنا، (وهي عسيرة على أن يجمعها جامع)، فانك ستصل، من
بين استنتاجاتك، الى أن الفرد العربي يصاب بالدوار منها. وانه اذا انشغل بها فانه قد يتعرض بسببها
الى اضطراب عقلي. ولأنه لا يريد هذا ولا ذلك، فانه يلجأ الى إن ينأى بنفسه عنها في حالة يأس
منها ومن المستقبل. يرافق ذلك أن أجهزة الإعلام العربي أوصلت الفرد العربي الى حالة من (التقيؤ
الفكري) لكثرة ترادها لما يزيد عن خمسين سنة مقولة " إن الأمة العربية تمر الآن بأزمة خطيرة "
، برغم تعاقب الأزمنة وتنوع السلطات، وكأنها مبرمجة لتئيس الفرد العربي من أمته ومستقبلها، لأن
التكرار وعلى مدى هذا الزمن الطويل، كفيل بأن يولد، سيكولوجيا"، حالة الإقناع بأن " الآن " هذه
مزمنة ولا خلاص للأمة منها..ما دامت الأسرة والنظام التربوي ينتجان سلطة فاشلة وفسادة..وهم
عليها بين راضين وعاجزين عن فعل التغيير..ولك في العراق انموذجا قل نظيره!

*** **



شبكة علوم النفس العربية
نحو لياقة نفسانية أفضل